IJSSP

المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م

www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[(منهج القرطبي(ت: 671هـ) في إظهار الأدلة وبيان أنواع الاستدلال بها على المعاني في التفسير من خلال تفسيره "الجامع لأحكام القرآن")]

[الباحث: المعطى الطائع]

[الماستر في العلوم الاسلامية ومقاصدها المنهجية والمعرفية]

[باحث في سلك الدكتوراه، الفكر الإسلامي: التحديات المعرفية والخصائص المنهجية،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، المغرب]

الملخص:

يتناول البحث جانبا من منهج "القرطبي" في الاستدلال على المعاني، وهو إظهار أدلتها وطرق الاستدلال بها، بتوظيف دلالات ألفاظ القرآن في حالتها الإفرادية أو التركيبية أوهما معا، دون إغفال ما يؤثره السياق من اختيار لفظة على أخرى، فيورد آراء المخالفين ويناقشها ويرد عليها دون تعصب، فكان منهجه النقدي في الاستدلال متميزا على كل المستويات.

الكلمات المفتاحية: إظهار الأدلة. أنواع الاستدلال. معاني القرآن. الألفاظ المفردة. الألفاظ المركبة. السياق. المنهج النقدي.

[The Kartabian Approach (D: 671AH) to show evidence and indicate the types of reasoning in the interpretation through its "exhaustive interpretation of the provisions of the Koran".]

Summary:

The research deals with an aspect of the "Cartebbe" approach to inference, namely, the demonstration of its evidence and the methods of inference, using the connotations of the Qur'an in their individual or syntactic case.

Key words: Show Evidence. Types of inference. Meaning of the Koran. Singular Words. Composite Words. Context. Critical Approach.

المقدمة:

لما كان علم التفسير من أشرف العلوم، وكانت مناهج النظر فيه والاستدلال لمعانيه، من أجلِّ مباحث أصوله، دعت الحاجة إلى الجمع بين أجلِّ العلوم (علم التفسير) وبين أهم المباحث في أبواب العلم (منهج النظر والاستدلال). وقد اجتهد المفسرون في إبراز معاني الآيات، وتحديد الأدلة، وطرق الاستدلال بها، ومع انتشار تلك المباحث في كتب التفسير نظرية وتطبيقا، واشتراك علماء التفسير في منهج عام متوافق عليه بينهم، فإني لم أجد، حسب علمي، ما يظهر تلك الأدلة ويوضحها، ويبرز ذلك المنهج المحتكم إليه في الاستدلال، ويكشف ضوابطه وأنواعه في دراسة تخصه، وأهم ما كتب في منهج القرطبي في التفسير كتاب(القرطبي ومنهجه في التفسير للدكتور القصبي محمود زلط) وكتاب (القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير للدكتور مفتاح السنوسي بلعم) وكتاب (الإمام القرطبي المفسر للدكتور محمد بنشريفة) إلا أنهالم تبرز منهجه في الاستدلال على المعاني، ولذلك وجب طرح الإشكال الآتي:

- ما طبيعة منهج القرطبي في إظهار الأدلة ؟

- وما هي أنواع الاستدلال التي وظفها للوصول إلى معاني القرآن؟

- وما أثر هذا المنهج في إظهار الأدلة وأنواع الاستدلال بها ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة جاء هذا البحث الموسوم ب:(منهج القرطبي(ت: 671هـ) في إظهار الأدلة وبيان أنواع الاستدلال بها على المعاني في التفسير) من خلال تفسيره- الذي جمع فيه بعض أقوال مفسري السلف، وناقشها وعلق عليها ورجح منها ما قوي دليله، ورد الباقي- لتسليط الضوء على بعض المخبئات التي أغفلتها الدراسات السابقة. وقد اقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهج الاستقرائي، وتقسيمه إلى مقدمة، تبين أهمية الموضوع والداعي إليه والدراسات السابقة؛ وأربعة مطالب، اشتمل أولها على التعريف بمفردات عنوان البحث وتفكيكها، وتكفل الثاني ببيان أنواع معاني القرآن إفرادا وتركيبا وسياقا وجمعا بينها، أما ثالث المطالب فعنوانه الحديث عن أنواع الاستدلال على المعاني، ورابعها موضوعه أثر منهج القرطبي في إظهار أدلة المعاني وأنواع الاستدلال، ثم النتائج والخاتمة.

المطلب الأول: تفكيك عنوان البحث.

1- المنهج والنهج والمنهاج في اللغة: الطريق الواضح البين[1].والمنهاج كالمنهج، وأنهج الطريق، وضح واستبان، وصار نهجا واضحا بينا، والمنهاج الطريق الواضح[2]. وفي التنزيل {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة من الآية 48]، قال البغوي (ت510هـ):" قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أي سبيلا وسنة، فالشرعة والمنهاج، الطريق الواضح".[3] وقال القرطبي:" والمنهاج الطريق المستمر وهو النهج والمنهج أي: البين"[4].

[1]-ينظر : مقاييس اللغة ،ابن فارس، ص: 931،ط:1،سنة:2017،دار الآفاق العربية، مادة :نهج. و القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص: 181،ط:2،سنة،2010 مؤسسة المختار ،مادة نهج.

[2]- ينظر ، لسان العرب ، ابن منظور،ج: 2،ص : 383 ط،1424هـ،دار عالم الكتاب الرياض، مادة :نهج. وتاج العروس من جواهر القاموس،الزبيدي ، ج:5، ص : 52،ط:1385هـ،الكويت مادة :نهج.

[3]- تفسير البغوي المسمى(معالم التنزيل)، ج : 2، ص : 42.ط،4،سنة:1417هـ، الرياض.

[4]- الجامع لأحكام القرآن،القرطبي، ج:6، ص : 185.ط : د،ت،المكتبة التوفيقية القاهرة.

والمنهج في الاصطلاح:"هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين"[5]. أو هو:" القاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية في أي مجال،ومن تم تختلف المناهج باختلاف العلوم التي تبحث فيها،فلكل علم منهج يناسبه، مع وجود حد مشترك بين المناهج المختلفة، وقد تتعاون-وهو الغالب- مجموعة من المناهج من لخدمة ومعالجة فن واحد" [6].

خلال النظر في هذه التعريفات،يتضح أن مفهوم المنهج هو استبانة الطريق ووضوحه قصد الوصول بأمان إلى الهدف المنشود، إذ المنهج هو:" الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة لاكتشاف الحقيقة، وأن العلم الذي يبحث في هذه الطرق هو علم المناهج، وأن هذا العلم قد تكوَّن على يد العلماء المتخصصين والفلاسفة، إذ هما يقطعان طريقا واحدة متكاملة إلى المعرفة" [7]. ومن خلال تعدد تعريفات المنهج بتعدد وجهات نظر المعرفين له تبرز ثلاث ملاحظات، الأولى: المنهج علم مُوجِّه ودليل قائد للباحثين للوصول إلى الحقائق المعرفية المبحوث عنها.الثانية:يرتبط المنهج ارتباطا وثيقا بمصادره التي يُعوَّل عليها في البحث العلمي. الثالثة: المنهج يتطور كلما تطور البحث العلمي، ويتنوع بتنوع مجالاته وقضاياه المعرفية[8].

2- الاستدلال في اللغة: عبارة عن طلب دلالة الدليل، والطريق المرشد إلى المطلوب، لأنه استفعال من الدلالة أي : طلب دلالة الدليل، فهو كالاستنطاق الذي هو طلب النطق والاستنصار الذي هو طلب النصرة[9]يقال:استدل به إذا أقامه دليلا،أو استدل عليه إذا طلب الدليل عليه،[10]والدليل عند العرب، المرشد والموصل إلى المطلوب، أصله من دل، ودل عليه دلالة بمعنى سدده إليه، والدليل الأمارة في الشيء[11].

وفي الاصطلاح: يأتي بمعنيين: أولهما: خاص، ويطلق على نوع خاص من الأدلة، كمنهج الاستنباط والبحث عن الدليل. وثانيهما عام :وهو طلب الدلالة، ويطلق على ذكر الدليل وإقامته مطلقا، من نص أو إجماع أو غيرهما[12].

وعليه فالاستدلال مصطلح يوظف خاصة في علوم كثيرة كالمنطق، وعلم الكلام، والمناظرات، والفقه وأصوله، والفلسفة ، والمقصود به هنا هو إقامة ما يرشد إلى الهدف، ويوصل إليه في قضية من القضايا، من أجل إثباتها وقبولها، أو إبطالها وردها، ويقترب منه في المعنى، الاحتجاج والحجة والبرهان والاستشهاد وهو الإتيان بالشاهد ومن معانيه الدليل[13].

3- المعنى لغة:أصله عُنِي بكذا واعتني به، وهو معني به، وعنيت بكلامي كذا إذا أردته وقصدته ومنه المَعنيُّ[14].
قال ابن فارس :" عني : العين والنون والحرف المعتل أصول ثلاثة؛ الأول: القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه، والثاني: دال على خضوع وذل، والثالث: ظهور شيء وبروزه، والذي يدل عليه قياس اللغة، أن المعنى هو

[5]-مناهج البحث العلمي،عبد الرحمان بدوي، ص: 4.،ط:1977، الكويت
[6]- ينظر: الوجيز في المناهج وإعداد البحث العلمي، أحمد عبد الحميد الخالدي،ص :62، طبعة :2009،دار الكتب القانونية ، القاهرة..
[7]-أصول البحث العلمي ومناهجه ، أحمد بدر،ط،8،سنة،1986،وكالة المطبوعات ، الكويت. ص : 35.
[8]- ينظر: مقدمة في مناهج البحث في العلوم الإسلامية، مولاي مصطفى الهند، ص : 19.ط،1، سنة:2015. الدار العالمية للكتاب، المغرب.
[9]-ينظر: لسان العرب، ج: 11، ص: 248، مادة :دل.
[10]- ينظر أساس البلاغة، الزمخشري، ص : 191.مادة :دل،ط،1، سنة:2009،دار صادر ،بيروت.
[11]-ينظر: القاموس المحيط، ص : 947،مادة :دل. ومقاييس اللغة، ص : 309، مادة : دل.
[12]- ينظر: الاستدلال عند الأصوليين، الكفراوي،ص: 22-23،ط،3،سنة،2009،دار السلام،القاهرة.
[13]-ينظر: مقاييس اللغة، مصدر سابق، مادة : شهد.
[14] - ينظر : أساس البلاغة، مصدر سابق، ص : 441. مادة: عني.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

القصد الذي يبرز من مكنون ما تضمنه اللفظ[15]؛ وفي القاموس المحيط: عنيت الأرض بالنبات: أظهرته، وعني بقول كذا أراده، ومعنى الكلام ومعنيه ومعناته ومعنيته واحد[16]. والجرجاني(ت741هـ) قسم الكلام إلى نوعين: نوع يتوصل إلى الغرض منه بدلالة اللفظ وحده، ونوع لا تكفي فيه هذه الدلالة، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، فتظهر لذلك المعنى دلالة تصل بك إلى الغرض بناء على الكناية والاستعارة والتمثيل، يقول: "فهاهنا عبارة مختصرة وهي:أن تقول(المعنى ومعنى المعنى)، تعني ب(المعنى) المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة،وب(معنى المعنى) أن تعقل في اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[17].

والأصل في المعنى أن يُحمل لفظه على ظاهره، ومن يلجأ إلى التأويل يحتاج إل دليل، فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل، يقع فيه الخلاف لأن بابه واسع، والعلماء مختلفون في الفهم والإدراك؛ وتأويل المعنى لا يخلو من ثلاثة أقسام: قسم يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره، ويقع عليه أكثر الأشعار. وقسم يفهم منه الشيء وغيره وهو قليل الوقوع جدا. وقسم ثالث وهو الغيرية التي إما أن تكون ضدا أو لا تكون ضدا، وهذا القسم وسط بين الأول الكثير الوقوع، والثاني القليل الوقوع.[18]

المطلب الثاني: أنواع معاني القرآن.

إن معاني القرآن الكريم من حيث دلالة الألفاظ عليها، وأساليب بيانها، وطرق الوصول إليها لتحرير مراد الله منها، تتنوع بتنوع معنى الألفاظ في حالة إفرادها، ومعناها في حالة تركيبها مع أخواتها في مصفوفة مفيدة، إضافة إلى ما يؤثره السياق من ألفاظ دون غيرها، والمشتغل بالتفسير يبين ويفسر المعنى الإفرادي للكلمة، أو المعنى الإجمالي للجملة في حالتها التركيبية من عدة ألفاظ، وهذه الأساليب والأنماط حاضرة بوضوح في تفاسير السابقين واللاحقين من علماء الأمة، وهذا ما يلاحظ عند الإمام القرطبي بشكل جلي ومتكرر في منهجه الذي التزم به في جامعه، وعند غيره، وفي ما يلي بيان ذلك:

النوع الأول: معاني الألفاظ مفردة:

وهو إبراز المعنى اللفظي المطابق للمفردة القرآنية مع الاستدلال على صحته بكلام العرب شعرا أو نثرا، وهذا ما يسمى بالتفسير على اللفظ ([19])، كما هو الحال في قواميس اللغة ومعاجمها، وقد اهتم اللغويون بهذا النوع، خاصة في غريب ألفاظ القرآن، وإعرابه، ومشكله، ومعانيه، فصنفت في ذلك مصنفات من قبيل (غريب القرآن) و(إعراب القرآن)، و(مشكل القرآن)، و(معاني القرآن)، وغيرها، والنظر في ألفاظ القرآن بحسب الإفراد يكون من وجوه:

1. من جهة المعاني التي وضعت الألفاظ لأدائها والتعبير عنها، وهذه مباحث لغوية.

---

[15]- ينظر : مقاييس اللغة، مصدر سابق، ص : 650-651، مادة : عني.
[16]- القاموس المحيط ، مصدر سابق، ص : 1260، مادة: عني.
[17]- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، الجرجاني، ص : 272-273. بتصرف.ط،2015،المطبعة العصرية،بيروت.
[18]-ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ابن الأثير،ج : 1، ص :49-51 بتصرف.ط،2010،المطبعة العصرية،بيروت.
[19]- ينظر: الخصائص لابن جني، ج 2 ص 463 و465.

2. من جهة الصيغ و الأبنية والهيئات الطارئة على الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة، وهذه مباحث على التصريف.

3. ومن جهة رد الفروع إلى أصولها، وهذه مباحث علم الاشتقاق ([20]).

والمعنى الإفرادي للألفاظ سابق حتما على المعنى التركيبي الإجمالي وأصل له؛ قال ابن الأثير: "ثم الألفاظ تنقسم إلى مفردة و مركبة، ومعرفة المفردة مقدمة على معرفة المركبة، لأن التركيب فرع عن الإفراد"([21]).

ومعاني الألفاظ الإفرادية، رغم كونها أصلا للمعنى التركيبي الإجمالي، غير كافية في فهم المقصود من التعبير، إذ لا يعقل حمل معاني التنزيل على معاني المفردات مجردة دون اعتبار سياقات الكلام، والداعي إليه ومناسبته، والاطلاع على أحوال الشهود و المعاصرين له، وقد لوحظ على بعض اللغويين جعلهم اللغة أصلا مستقلا للتفسير، وإغفال باقي المصادر([22])، قال الراغب(ت:425هـ): "وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن، العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرامته، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم" ([23])"، وهذا ما ذهب إليه الزركشي (ت: 794هـ) بقوله: "فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن، من أوائل المعادن، لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه"([24]).

والقرآن نسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق و اللطائف لفظا ومعنى، فحسن النظم وجودة السبك في ألفاظ القرآن وجه من وجوه إعجازه وتحديه، قال ابن عطية (ت: 546هـ): "ووجه إعجازه، أن الله تعالى...وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى"([25])، وقال القرطبي (ت: 671هـ): "ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة منها:

- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وغيرها.

- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

- الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال.

- التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إيضاحه في وضع كل كلمة وحرف في موضعه...إلخ"([26]).

فبعلم اللغة تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة، قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: "لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة" وعلم اللغة يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة من حيث دلالتها على معانيها بالمطابقة، وموضوعه المفرد الحقيقي، والعلم بالأوضاع الشخصية للمفردات، للاحتراز عن الخطأ في حقائق الموضوعات

[20]- ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ص 431.
[21]- ينظر: نهاية في غريب الحديث، ج 1 ص7. والبحر المحيط للزركشي، ج 1 ص 105.
[22]- ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص 217.
[23]- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص 55.54 .
[24]- البرهان في علوم القرآن، ص 431، طبعة 2006.
[25]- ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ج 1 ص 52، بتصرف.
[26]- ينظر: الجامع للقرطبي، ج 1 ص 86.85، بتصرف.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

اللغوية، ومعرفة مفردات اللغة نصف العلم، لأن كل علم تتوقف إفادته واستفادته عليها ([27])، والناظر في كتب التفاسير لا يعدم وجود أنواع من التفسير في بطونها، كالتفسير على اللفظ دون المعنى ومن ذلك ما ذكره ابن قتيبة(ت: 276) في تفسير معنى (السبات) عند تفسير قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [النبأ، من الآية: 9] قائلا: "فليس السبات ههنا النوم...ولكن السبات: راحة، ثم قد يسمى النوم سباتا"([28])، وقال الطبري (ت: 310هـ) في تفسيرها: "وجعلنا نومكم راحة ودعة... والسبت والسبات هو السكون، ولذلك سمي السبت سبتا لأنه يوم راحة ودعة"([29]).

وهذا نفس ما ذهب إليه القرطبي(ت: 671هـ) في جامعه قائلا: "(سباتا) أي راحة لأبدانكم ومنه: يوم السبت، أي يوم الراحة، وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبتآ"([30]).

ولقد اهتم القرطبي بشرح وبيان ألفاظ القرآن اهتماما بالغا، ونهج في تفسيرها وتوضيحها نهجا دقيقا، يفتتحه بإبراز أصل المفردة وبنيتها الصرفية وأصل اشتقاقها، مستدلا على ذلك بمعهود كلام العرب من الشعر أو النثر، أو القرآن أو السنة، أو من آثار السلف مستعرضا أقوال المخالفين مع مناقشتها و الرد عليها بالبراهين و الأدلة، وهذا إن كان لا يتوفر جميعه في كل مكان، فإنه يوجد في أماكن متفرقة بشكل متفاوت ومختلف، حسب ما يقتضيه الحال والمقام، ومثال ذلك تفسيره للفظة {نَحْنُ}[البقرة، من الآية 11]، قال: "أصل (نحن) نَحُنْ، بضم الحاء وسكون النون، قلبت حركة الحاء على النون، وأسكنت الحاء، قاله: هشام ابن معاوية النحوي، وقال الزجاج: (نحن) لجماعة، ومن علامة الجماعة الواو، والضمة من جنس الواو، فلما اضطروا إلى حركة (نَحْنْ) لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة...و(نحن) للتثنية والجمع، وقد يخبر بها المتكلم عن نفسه { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف، من الآية 32] والمؤنث في هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر، تقول المرأة: قمت وذهبت وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذلك ونحن فعلنا، وهذا كلام العرب فاعلم"([31]).

النوع الثاني: معاني الألفاظ مركبة:

ويقصد به إظهار المعنى الإجمالي للكلمة القرآنية في نظمها مع أخواتها حالة تركيبها في كلام مفيد، وهو ما يعبر عنه بـ (التفسير على المعنى دون اللفظ)، وهو: "موضع قد أتعب كثيرا من الناس واستهواهم...حتى إن أكثر ما ترى من هذه الآراء المختلفة والأقوال المستشنعة، وإنما دعا إليها القائلين بها تعلقُهم بظواهر هذه الأماكن، دون أن يبحثوا عن سر معانيها و معاقد أغراضها"([32])، ومن ذلك قول المفسرين في قوله تعالى: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}[الصف، 14] أي: مع الله، ليس أن (إلى) في اللغة بمعنى: مع، لأنك لا تقول، سرت إلى زيد، وأنت تريد أن تقول: سرت مع زيد، هو لا يعرف في كلامهم، وإنما جاز هذا التفسير في هذا الموضع لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان له أنصار فقد انضموا في نصرته إلى الله، فكأنه قال: من أنصاري منضمين إلى الله"([33])، قال القرطبي: "أي من أنصاري مع الله، كما نقول: الذوذ إلى الذوذ إبل أي مع الذود"([34]).

---

[27]- ينظر: البلغة في أصول اللغة للقنوجي، ص 64، بتصرف.
[28]- ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص 126-127، بتصرف.
[29]- ينظر: جامع البيان، الطبري، م 12 ص 397، بتصرف.
[30]- ينظر: الجامع للقرطبي، ج 19 ص 129.
[31]- ينظر: الجامع، ج1 ص 208 بتصرف.
[32]- الخصائص لابن جني، ج 2 ص 464.
[33]- ينظر: الخصائص لابن جني، ج 2 ص 464. وجامع البيان، ج 29 ص 86.
[34]- ينظر: الجامع للقرطبي، ج 18 ص 68.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: {يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[ق، 30] قالوا "معناه: قد امتلأت، وهذا أيضا تفسير على المعنى دون اللفظ، و(هل) مبقاة على استفهامها، وذلك كقولك للرجل لا تشك في ضعفه عن الأمر: هل ضعفت عنه؟...وقولها: (هل من مزيد)؟ أي: أتعلم يا ربنا أن عندي مزيدا؟

فجواب منه . عز اسمه . لا، أي فكما تعلم أن لا مزيد فحسبي ما عندي، فعليه قالوا في تفسيره: قد امتلأت، فتقول: ما من مزيد"([35]).

قال القرطبي: "وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده، و(تقول) جهنم، (هل من مزيد) أي: ما بقي في موضعٌ للزيادة"([36]).

واعتناء المفسرين بمعاني الألفاظ خلال تركيبها أمر معتاد عندهم في غالب تفاسيرهم، وقد يخالف معناها في حالة الإفراد معناها في حالة التركيب، وأكثر فهوم السلف على هذا النمط من التفسير، ولقد ذهبوا في بيان معاني الحروف المقطعة مثلا مذاهب، عددها النحاس(ت: 338هـ) ثم قال: ولم يشرحوا ذلك بأكثر من هذا لأنه ليس من مذهب الأوائل،...وقد توقف العلماء عن الكلام فيها وأشكالها حتى قال الشعبي: "لله تعالى في كل كتاب سر، وسره في القرآن فواتح السور" وقال أبو حاتم: "لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله تعالى بها؟"([37]).

وغرض المفسرين من هذا كله بيان مقصود الله في كتابه بأوضح بيان يحتمله المعنى ولا يرفضه اللفظ، لإظهار المراد من مقاصد القرآن، أو ما يعين على فهمه وإدراك معانيه، مع التدليل على ذلك إن كان فيه خفاء، أو للرد على ضال مضل أو جاهل متعنت، ولذا كان لزاما معرفة اصطلاح القرآن في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاحات وعادات، قال الطاهر ابن عاشور: "فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث:

1- الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهو الأصل.

2- استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام، ولا يجافيها الاستعمال ولا مقاصد القرآن.

3- جلب مسائل وبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها..."([38]).

النوع الثالث: أثر السياق في تحديد المعنى:

ولا يخفى أثر السياق في العدول عن مبنى إلى المبنى الذي يقتضيه، فتتقوى المعاني بقوة الألفاظ الدالة عليها، حين يؤثر السياق لفظة على أخرى باعتبار ما زيد فيها، لتكثير المعنى وتقويته وتفخيمه، فاخشوشن أقوى من خَشُنَ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو، قال ابن جني (ت:392هـ): "ومثله باب فعل وافتعل، نحو قدر واقتدر، فاقتدر أقوى معنى من قولهم: قدر، كما في قوله تعالى: [أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [سورة القمر، من الآية 42]، فمقتدر هنا أوفق من قادر، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ، فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به"([39]). ومنه قوله تعالى: {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}[هود، من الآية

[35]- ينظر: الخصائص،ج 2 ص 465.
[36]- ينظر: الجامع، ج 17 ص 16.
[37]- ينظر: معاني القرآن للنحاس، مج 1 ص 18.
[38]- ينظر: التحرير والتنوير، م 1 ص 42.
[39]- ينظر: الخصائص لابن جني، م 2 ص 466.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

12] فمبنى (ضائق) مثلا وهو اسم فاعل من ضاق المعدول عن مبنى (ضيِّق) يدل على أنه ضيْق عارض غير ثابت في حقه صلى الله عليه وسلم، الذي كان أرحب الناس صدرا، قال الطاهر ابن عاشور(ت:1393هـ): "إنما عدل أن يقال(ضيق)هنا إلى (ضائق)، لمراعاة النظير مع قوله تعالى(تارك)(هود من آية 12) ولأن ذلك أحسن فصاحة، ولأن(ضائق) لا دلالة فيه على تمكن وصف الضيق من صدره، بخلاف (ضيق)الذي هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف"([40]). ولعلماء اللغة عامة، ولأهل التفسير خاصة، لفتات رائعة في هذا المجال، مجال العدول من مبنى إلى مبنى وإيثار السياق القرآني للفظ دون آخر، من ذلك قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}[البقرة، من الآية 25] يقول الزمخشري(ت: 538هـ): "هلا قيل:(طاهرة) قلت: في (مطهرة)فخامة لصفتين ليست في (طاهرة) وهي الإشعار بأن مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلا الله عز وجل، المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم"([41]). وقال القرطبي في تفسيرها: "و(مطهرة) في اللغة أجمع من (طاهرة) وأبلغ معنى"([42])، وقد آثر السياق القرآني لفظ (مرضعة) على (مرضع) في قوله تعالى: {يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}[الحج، من الآية2].

قال الزمخشري: "فإن قلت : لم قيل: (مرضعة) دون (مرضع) التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حالة وصفها به، قيل (مرضعة) ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل"([43]).

والذي تجدر الإشارة إليه أن زيادة المبنى ليست دلالة مطلقة دائما على قوة المعنى، فقد تكون زيادة تجعل المعنى مقابلا لمعنى اللفظ المجرد ومخالفا له، مثلا: وعد التي تستعمل في الخير والشر، وأوعد التي تستعمل في الشر فقط.

وقسط بمعنى: عدل، وأقسط بمعنى ظلم، وصفد بمعنى: قيد، وأصفد بمعنى: أعطى، وأحيانا لا يوجد فرق بين المبنى المزيد وأصله المجرد مثل: كسب التي قد تتعدى إلى مفعولين كقولك: كسبت فلانا مالا، وأكسبته إياه، إلا أن المشهور أفصح لفظا، فكسبته مالا أفصح من أكسبته"([44]).وما ادعاه بعض اللغويين أن "شرى واشترى" مترادفان، أو أن معنى اشترى أقوى معنى من شرى بسبب زيادة الأول، وهم لا دليل عليه، فمبني (شروه) في قوله عز وجل: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ}[يوسف، من الآية 20] أي: باعوه، يقال: شرى كما يقال: باع، ويقال: اشترى كما يقال: ابتاع ومثلهما: رهن وارتهن، وكرى واكترى، والأصل أن الفعل للحدث والافتعال لمطاوعة الحدث"([45]). ومن هنا كان للسياق دوره وأثره في تحديد المعنى المراد بفعل انتقائية الألفاظ، واختيار الصيغ المطابقة لما تحصل به المعنى ويتحقق به الفهم، وعادة السلف في البيان المراد وفهم المعنى، جمع الكلام واختزاله في معاني الألفاظ المبثوثة في الخطاب، وذلك لدواع:

1- الحرص على المعاني هو الأصل، والألفاظ تبع لها، والعرب تعتني بمعانيها أكثر من عنايتها بألفاظها، وقد أصلحت الألفاظ من أجل المعاني، وهذا أصل معروف عند أهل العربية، واللفظ وسيلة إلى تحقيق المقصود، والمعنى هو المراد والغاية، والمعنى الإفرادي لا يلتفت إليه إذا تحقق التركيبي، قال الشاطبي(ت:790هـ): "فإن

---

[40]- التحرير والتنوير، م 1 ص 42.
[41]- ينظر: الكشاف للزمخشري، ص 56. طبعة 2012.
[42]- ينظر: الجامع، ج 1 ص 238.
[43]- ينظر: الكشاف، ص:840.
[44]- ينظر: روافد المبنى وأثرها في المعنى لطالب اسماعيل، ص 135.
[45]- ينظر: التحرير والتنوير، ج 12 ص 243، بتصرف.

المعنى الإفرادي لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه"([46])، وقال الشافعي(ت: 204هـ): "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها،...وتتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها"([47]).

2- إن الوصول إلى معاني القرآن أجدر وأحق من الاهتمام بألفاظه وبيان دلالتها وصيغها ومفاهيمها، بدليل قوله تعالى: {لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلْيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ}[ص، من الآية 29].

3- الاكتفاء والاستغناء بإدراك المعنى التركيبي عن معرفة المعنى الإفرادي، وقد توقف عمر رضي الله عنه، عندما قرأ قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}[عبس، من الآية 31] فقال: ما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا هذا، وفي رواية نهينا عن التعمق والتكلف، كما روي عنه أيضا حين سئل على المنبر عن معنى قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ}[النحل، من الآية 47] فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا: التنقص، قال الشاطبي: "فلو كان فهم اللفظ الإفرادي يتوقف عليه فهم التركيبي لم يكن تكلفا... فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب، لأنه المقصود والمراد وعليه يبنى الخطاب ابتداء"([48]).

4- القرآن نزل على العرب بلغتهم، وهم أهل فصاحة وبيان، فلم يكونوا وقت النزول في حاجة إلى معاني الألفاظ بقدر حاجتهم إلى إدراك المعاني المرادة من الألفاظ والتراكيب لتطبيقها عمليا في حياتهم اليومية، وسلوكهم ومعاملاتهم وتعاملهم، قال ابن عطية "والذي أقوله: إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج من كلام العرب فلا تفهمها"([49])، وقال الشاطبي في معرض حديثه عن مواصفات الرأي المذموم المعيب المبتدع، وما كان مثله من ضروب البدع: "فإن حقائق جميع البدع رجوع إلى الرأي، وخروج عن الشرع، وهذا هو القول الأظهر...وهكذا كل ما تقدم من الأقوال الخاصة ببعض أهل البدع، إنما تحصل على التفسير بحسب الحاجة، حسب ما تقدم إلى غير ذلك مما يذكر في التفسير، إنما يحملون على ما يشمله الموضع بحسب الحاجة الحاضرة، لا بحسب ما يقتضيه اللفظ لغة، وهكذا ينبغي أن نفهم أقوال المفسرين المتقدمين، وهو الأولى لمناصبهم في العلم، ومراتبهم في فهم الكتاب والسنة"([50]). وذكر الزركشي أن المركب لا يعلم إلا بعد معرفة مفرداته وألفاظه، فالجزء سابق على الكل في الوجود الذهني والخارجي، فيكون النظر في التفسير بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها، فأما بحسب الأفراد فقد سبقت الإشارة إلى ذلك، "وأما بحسب التركيب فمن وجوه أربعة:

أولا: باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤيدة أصل المعنى، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع، وذلك متعلق بعلم النحو.

ثانيا: باعتبار كيفية التراكيب من جهة إفادته معنى المعنى...الذي تختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء، ويتكلف بإبرازه علم المعاني.

---

[46]- ينظر: الخصائص، ج 1 ص182و237. والموافقات، ج 2 ص 66.
[47]- ينظر: الرسالة للشافعي، ص 8887 بتصرف.
[48]- ينظر: الموافقات، ج 2، ص 6766 بتصرف. ينظر: البرهان للزركشي، ص 432.
[49]- المحرر الوجيز، ج 1 ص 51.
[50]- ينظر: الاعتصام للشاطبي، ج1 ص 90-91.

ثالثا: باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها، وباعتبار الحقيقة والمجاز وغيرها، وهو ما يتعلق بعلم البيان.

رابعا: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية وغيرها، ويتعلق بعلم البديع ([51]).

والمفسرون على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم، أثناء معالجتهم لقضايا البيان التركيبي لمعاني القرآن، بذلوا قصارى جهودهم واستفرغوا كل ما في وسعهم للتعبير عن هذه المعاني بعدة صور، للوصول إلى المبتغى من مراد كلام الله تعالى، ممتطين صهوة لازم المعنى تارة، وجزأه تارة أخرى، كما فسروا بالنظير وبالمثال، ومما يؤول إليه الأمر في أماكن كثيرة، وفي سعي النحاة إلى إيجاد ضوابط تحدد المعني اعتمدوا الإفراد والتركيب، وقد ذكر الزركشي أن المقصود من المعنى المركب هو الذي يدل جزء لفظه على جزء معناه، كالتركيب الاسنادي مثل: ضرب خالد، والتركيب الإضافي مثل: عبد الله، إذا لم يكونا علمين، حيث تعلقت الكلمة الأولى بالثانية تعليقا نحويا، وأما المعنى المفرد فهو المعنى الذي لا يدل جزء لفظه على جزء معناه كالمصدر والاسم والفعل([52])، قال ابن تيمية: (728هـ) : "فإن منهم ـ يعني المفسرين ـ من يعبر عن الشيء بلازمه، ونظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه"[53].

وقال ابن القيم(751هـ): "والعلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته ، فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده، والألفاظ لم تقصد لذاتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم،... وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه"([54])، وقال أيضا: "السلف كثيراً ما ينهبون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها"([55])، ومثال هذا ما أورده القرطبي في جامعه عند تفسيره لقوله تعالى: { وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للّه جَمِيعًا وَأَنَّ اللّه شَدِيدُ الْعَذَابِ}[البقرة، من الآية 165].

قال: "قراءة أهل مكة وأهل الكوفة وأبي عمرو بالياء وهو اختيار أبي عبيد"... وفي الآية إشكال وحذف، فقال ابو عبيد: "المعنى: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة له لعلموا حين يرونه ان القوة لله جميعا، و"يرى"على هذا من رؤية البصر، قال النحاس في كتاب "معاني القرآن" له:

وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير، وقال في كتاب "إعراب القرآن" له: وروي عن محمد ابن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذي جاء به أبو عبيد بعيد، وليست عبارته بالجيدة[56]. ثم تابع كلامه قائلا: "ولكن التقدير هو قول الأخفش: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله ، و(يرى) بمعنى يعلم، أي: لو يعلمون حقيقة قوة الله عز وجل وشدة عذابه. ومن قرأ بالتاء فالتقدير: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه و استعظامهم له لأقروا أن القوة لله ، ...ولا يجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . . . والمعنى : ولو

[51]- ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ص431.
[52]- ينظر: تأويل اللفظ والحمل على المعنى لوئام الحيزم، ص 84 بتصرف.
[53]- مجموع الفتاوى، ج 13 ص 198 .
[54]- أعلام الموقعين، ج 1 ص 165 .
[55]- الجامع ، ج 2 ص 283 و 293.
[56] - المرجع نفسه، ج 2، ص 182.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب لأن القوة لله، لعلمت مبلغهم من النكال ولا استعظمت ما حل بهم ([57])

والتفريق بين البيان التركيبي والإفرادي لألفاظ القرآن الكريم، في تفسير القرطبي جلي و بارز، فقد جمع فيه بين المعني المعجمي الإفرادي للكلمة، و بين المعنى التركيبي الكلامي حين صياغتها في جملة مع أخواتها، فيذكر معنى اللفظ في لغة العرب وتنوع دلالتها وأصلها و كيفية استعمالاتها، ثم يردف ذلك بالتغييرات التي طرأت عليها حين سبكها في النظم القرآني، لتأدية المعنى المراد، ومثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة، من الآية 38] قائلا: "الخوف هو: الدعر، ولا يكون الا في المستقبل، وخاوفني فلان فخفته، أي كنت أشد خوفا منه، و التخوف: التنقص، ومنه قوله تعالى: **{ أَوْ يَاخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ }** [النحل، 47] . . . و الحزْن والحزَن : ضد السرور ولا يكون إلا على ماض، وحزن (بالكسر) فهو: حزن وحزين، وأحزنه غيره وحزنه أيضا... قال اليزيدي: حزَنه لغة قريش، وأحزنه: لغة تميم ، وقد قرئ بهما، واحتزن وتحزَّن: بمعنىً، والمعنى في الآية: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . . والله اعلم ([58])

وهذا الذي أشار إليه الشوكاني(ت 1250هـ) في تفسيره مؤكدا على ضرورة الأخذ عن الصحابة في التفسير، لأنهم أهل لغة وبيان، ودراية باصطلاحات الشرع، قال : "واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما جاء من الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم من جملة العرب، ومن أهل اللغة، وممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية. ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به في لغة العرب، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها"([59]).

المطلب الثالث: أنواع الاستدلال على المعاني في التفسير:

يمكن تصنيف الاستدلال على المعاني في التفسير إلى نوعين:

النوع الأول: الاستدلال على صحة المعاني والترجيح بينها.

وغاية هذا الصنف، إثبات صحة المعاني والتأصيل لها، و قبول القوي منها، ثم الترجيح بينها حسب ما انبنت عليه من أدلة قوية، وما توافر فيها من شروط الصحة ودواعي القبول، و من أمثلة ذلك في تفسير القرطبي:

أولا: استدلاله على صحة ما قيل في تفسير معنى {الْكَعْبَيْنِ}[المائدة، من الآية 6] فبعد بيان كيفية و صفة الوضوء، وإيراد النصوص الشرعية الواردة في الموضوع، وسرد أقوال العلماء، واختلافاتهم قال: "واختلف العلماء في (الكعبين فالجمهور على أنهما العظمان الناتئان في جنبي الرجل، وأنكر الأصمعي قول الناس: إن الكعب في ظهر القدم، ... قال ابن عطية: ولا أعلم أحداً جعل حداً للوضوء إلى هذا، ... وقال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفا في أن الكعبين هما العظماء في مجمع مفصل الساق، وروى الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك قال : الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما هما العظمان الملتصقتان بالساق المحاذيان للعقب، وليس الكعب الظاهر في وجه القدم، قلت: هذا هو الصحيح لغة وسنة"[60].

[57]- المرجع نفسه والمكان نفسه، ج 2 ص 182.
[58]- ينظر: نفسه، ج 1 ص 317.
[59]- فتح القدير للشوكاني، ج 4 ص 309.
[60]- الجامع، ج 6 ص87.

فاستدلال القرطبي على صحة هذا المعنى بناه على دليلين:

أحدها من اللغة قال فيه: "الكعب في كلام العرب مأخوذ من العلو و منه سميت الكعبة... وقد يستعمل في الشرف والمجد تشبيها، ومنه الحديث: "واللهِ لا يزال كعبك عاليا" [61].

وثانيهما من السنة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود عن نعمان بن بشير قال: "والله لتقيمُنَ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم"[62]، قال: "فرأيت الرجل يلصق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه"[63].

ثانيا: في حالة تساوي المعاني صحة وقبولا، لا فسادا وبطلانا، ودوران الأقوال بين الراجح والمرجوح من حيث قوة الأدلة وضعفها، فإن الاستدلال هنا ينصب على دواعي انتقاء أرجح معنى وأقواه لتثبيته وقبوله، والعمل به، ومن ذلك ما رجحه القرطبي في معنى قوله تعالى: {شَعَائِرَ اللهِ}[المائدة، من الآية 2]، قال: "والشعائر، جمع شعيرة على وزن فعيله، وقال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، والشعيرة: البدنة تهدى،... والإشعار: الإعلام... وعلى قول: جميع مناسك الحج: قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهدي البدنة والبُدن، كل ذلك من الشعائر، قال الشاعر:

نُقتِّلُهُمْ جِيلا فجيلا تراهم شعائرَ قُربان بها يُتقربُ

وقال عطاء بن أبي رباح: شعائر الله جميع ما أمر به ونهى عنه، وقال الحسن: دين الله كله... قلت: وهذا هو القول الراجح الذي يقدم على غيره لعمومه"[64]. ودليل الترجيح هنا العموم.

النوع الثاني: الاستدلال على إبطال المعاني وردها.

ويلجأ إليه لنفي قول ورده وإبطاله لعلة فساده، أو فساد دليله، أو سوء تأويله، أو غيرها، وقد يكون في الاستدلال على صحة نقيضه ومقابله غنية عنه، والقول يُنفي ويدفع بأدلة متنوعة كالكتاب والسنة والإجماع والقياس، ومعهود العرب وغيرها، ومن أمثلة ذلك ما أورده القرطبي عند تفسير قوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة من الآية20] قال: "والخطاب من موسى لقومه في قول جمهور المفسرين وهو وجه الكلام، قال مجاهد: والمراد بالإتيان: المن والسلوى والحجر والغمام، وقيل: كثرة الأنبياء فيهم، و الآيات التي جاءتهم، وقيل: قلوبا سليمة من الغل والغش، وقيل: إحلال الغنائم والانتفاع بها، قلت: وهذا القول مردود، فإن الغنائم لم تحل لأحد إلا لهذه الأمة على ما ثبت في الصحيح"[65]، فرده لهذا القول ونفيه له مبني على الحديث الصحيح الذي رواه جابر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي منه: "...أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي"[66].

وفي مجال الرد على الفرق الضالة وإبطال رأي المخالفين أثناء حديثه عن إعجاز القرآن، قال: "ووجوه إعجاز القرآن الكريم، عشرة"... فبعد أن عددها الواحدة تلو الأخرى، مستدلا بما يناسب من الآيات، قال: "قلت: هذه

[61]- أخرجه الطبراني في الكبير، ج 7 ص 25.
[62]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم 662.
[63]- الجامع، ج 6 ص 87.
[64]- المصدر نفسه، ج 6 ص 33 بتصرف.
[65]- الجامع، ج 6 ص 110.
[66]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم، رقم 1747.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم، ووجه حادي عشر قاله النظام وبعض القدرية: إن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عن التحدي بمثله، وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله؛ وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة، قبل حدوث المخالف، أن القرآن هو المعجز فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع"[67].

وهكذا أبطل قول المخالفين ورده لفساده استنادا إلى إجماع الأمة وهو من الأدلة الشرعية المعتبرة.

المطلب الرابع: أثر منهج القرطبي النقدي في إظهار الأدلة وأنواع الاستدلال بها:

لقد حظي تفسير القرطبي بما لم تحظ به عدة تفاسير من جيله، فنال اهتمام وعناية العلماء و المؤرخين الذين أثنوا عليه، وأبرزوا قيمته العلمية ومكانته المعرفية، حتى سارت بذكره الركبان، لعظمة شأنه و كمال معناه، ووفرة علومه، فكان من أجل التفاسير وأكثرها نفعاً ، جمع مذاهب السلف كلها، وكثرت فوائده حتى ذاعت له شهرة بالمشرق أهلته ليكون كعبة يؤمها الدارسون والمفسرون الذين جاءوا من بعده طلبا للفائدة وحرصا على التعلم والانتفاع به[68].

والمنهج الاستدلالي النقدي الذي سار عليه القرطبي في تفسيره يتميز بكونه مستوعبا لكل ما ورد عن السلف واللغويين من معاني، ثم يضم الأقوال التي يمكن الجمع بينها، ثم يردفها بالنقد والتحليل والمناقشة، فينسب الأقوال إلى أصحابها بعد التأكد من صحتها و فرز الغث من السمين، مستدلا لكل قول بدليل صاحبه، مضيفا كل دليل يعضد صحة المعنى ويقويه، ثم يحلل الأدلة و يفحصها من حيث الصحة وعدمها، وما يستدل به منها وما يرفض من جهات النقل والإسناد والنظر والتأمل والاجتهاد، ثم يخلص إلى المصفاة وهي مرحلة الاختيار والترجيح بناء على ما اقتنع به من أدلة، ولو خالفت مذهبه، محكما الرأي النزيه البعيد عن الهوى و النزعات الطائفية والتعصب المذهبي أو العقدي، غير ناقل لكل ما يقع تحت يده، بل يزن ما ينقله بميزان العلم الرصين والفهم العميق، والرأي الحصيف، فيقبل بلسان صدق ما استحسنه من آراء العلماء والفقهاء، ويرفض بكل جرأة وشجاعة كل ما جانب الصواب، بناء على حجج قوية دامغة مقنعة تؤيد ما ذهب إليه بهدوء ولين، و لتوضيح هدا المنهج ينبغي انتقاء بعض النماذج المتنوعة في عدة مجالات من تفسيره ، ومن ذلك:

1- في مجال الموسوعية العلمية، قال عند تفسير قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [البقرة، من الآية 40]، (إسرائيل): هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال أبو الفرج الجوزي: و ليس في الأنبياء من له اسمان غيره ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن له أسماء كثيرة، ذكره في كتاب (فهوم الآثار) له، قلت: وقد قيل في المسيح إنه اسم علم لعيسى عليها السلام، غير مشتق، و قد سماه الله روحا وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين، ذكره الجوهري في الصحاح، وذكر البيهقي في (دلائل النبوة) عن الخليل بن أحمد: خمس من الأنبياء ذوو اسمين، محمد و أحمد نبينا صلى الله عليه وسلم وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل عليهم السلام، قلت: ذكرنا لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم ، فله أسماء كثيرة[69].

---

[67]- ينظر: الجامع، ج 1 ص 87.
[68]- ينظر: القرطبي ومنهجه في التفسير لمحمود زلط، ص 418.
[69]- ينظر: الجامع، ج 1 ص 318.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الثالث – البحث الثاني (ص: 18 - 34)
15 – آذار – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

2- في مجال الرد على الفرق و منهم المعتزلة يقول عند تفسير قوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُم المفْلِحُونَ} [الأعراف، الآية 8] "والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان ، قال ابن عمر: توزن صحائف أعمال العباد، وهذا هو الصحيح . . . والأولى أن يتبع ما جاء في أسانيد الصحاح من ذكر الميزان . . . قال ابن فورك، وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها، ومن المتكلمين من يقول: إن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة، وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف"[70].

كما يذكر آراء المعتزلة في الرسالة المحمدية الخاتمة ويردها بناء على إبطال أئمة السنة والجماعة لها، لتعارضها وافتقارها إلى الأدلة القاطعة، يقول عند تفسير قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى52]، " . . . وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به، ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهب طائفة إلى أنه كان على دين، عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها، فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم، لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى، لأنه أقدم الأديان، وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا"[71]، ثم قال معلقا: "وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا، إذ هي متعارضة، وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوز ذلك، والذي يقطع به أنه عليه السلام، لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطبا بكل شريعته، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم عز وجل، وأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى، ولا شرب الخمر..."[72].

3- وفي مجال اللغة ينتقد أحكام اللغويين وأقوالهم مستدلا على ما يقوله بنقوله عن علماء العربية و معهود كلام العرب، وما يوصله إليه اجتهاده وفهمه وبحثه، ففي تفسير قوله تعالى: {وَالسَّلْوَى}[البقرة، من الآية57]، يقول: (والسلوى) اختلف في السلوى فقيل هو السماني بعينه، قاله الضحاك قال ابن عطية: "السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي فقال:

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشروها

ظن السلوى: العسل.

قلت: ما ادعاه من الإجماع لا يصح، وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، سمي به لأنه يسلى بها ، ومنه عين السلوان، وأنشد:

لو أشرب السلوان ما سليت ما بي غِنًى عنكِ وإن غَنِيتُ

وقال الجوهري: والسلوى العسل، و ذكر بيت الهذلي:

[70]- نفسه، ج 7 ص134.135. والتذكرة، ج 2 ص 282.
[71] - نفسه ، ج16، ص 46.
[72]- المصدر نفسه والمكان نفسه.

ألذ من السلوى إذا ما نشروها ولم يذكر غلطا"[73]

4- إن مما يميز منهج القرطبي في الاستدلال على إبراز معاني آيات الأحكام الفقهيه اهتمامه بالجانب الحديثي في المسائل التي يستدل عليها بالحديث، فهو يجمع بين الفقه والحديث، وهذه مزية مهمة تحسب له فاق بها غيره، لأن بعض الفقهاء لا يلتفت إلى التحقق من صحة الحديث عند إبرازه شاهدا على المسألة ودليلا عليها، بينما القرطبي يعرض الحديث على محك الصحة و الضعف متنا وسندا، ومن ذلك:

ما أورده في المسألة السابعة من آيات الصيام عند الكلام على وجوب التتابع في صوم القضاء من أحاديث، قال: "اختلف الناس في وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدار قطني في سننه، فروي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "نزلت (فعدة من أيام أخر متتابعات) [البقرة، من الآية 184] فسقطت (متتابعات)، قال: وهذا إسناد صحيح. وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان عليه صوم من رمضان فليسرده ولا يقطعه" في إسناده عبد الرحمان بن إبراهيم ضعيف الحديث"[74]، والملاحظ اعتماد القرطبي بشكل أساسي على كتب الحديث لاستقاء الأحاديث والأخبار في شأن القضايا والأحكام الفقهية التي يثيرها في تفسيره مع حرصه الشديد على تحري الصحيح منها والتأكيد عليه، والإشارة إلى الضعيف والتنبيه عليه، باعتبار السنة شارحة للقرآن ومبينة له.

النتائج:

و قد أسفر البحث عن النتائج الآتية:

- إن تحصيل بعض مراد الله من كلامه لا يمكن الوصول إليه إلا بمعرفة دلالات ألفاظ القرآن في حالات إفرادها وتركيبها والسياق الذي وردت فيه.

- إن معرفة اصطلاحات القرآن في إطلاق الألفاظ أمر ضروري لإظهار المراد من مقاصد القرآن لأن غرض التفسير هو بيان مقصود الله في كتابه بأوضح بيان يحتمله المعنى ولا يرفضه اللفظ .

- لا بد لكل مشتغل بالتفسير أن يتقن اللغة التي نزل بها القرآن، لأن اللغة نصف العلم، وكل علم تتوقف إفادته واستفادته عليها.

- القرطبي جمع بين الحسنيين: إتقان اللغة العربية ومعرفة دلالات الألفاظ في كل حالاتها، والإلمام باصطلاحات القرآن في إطلاق الألفاظ الموصلة للمعاني المقصودة.

خاتمة:

يتضح مما سبق أن لمنهج القرطبي النقدي آثرا بالغ الأهمية في تصحيح الأدلة وإظهارها بعد استيعابها، وتصويب الأقوال وتقويمها بناء على الأدلة القوية القاطعة، وكيفية الاستدلال بها، بعد تحليلها وفحصها من حيث الصحة وعدمها، والنظر والتأمل والاجتهاد، وعرضها على مصفاة فرز الغث من السمين والقوي من الضعيف، وإخضاعها لميزان العلم الرصين والإدراك الجيد والفهم السليم، قبل مرحلة الاختيار والترجيح التي أساسها الاقتناع والإقناع ولو خالفت مذهبه، غير ناقل لكل ما تقع عليه عينه، محكما الرأي السديد والقول

[73]- الجامع، ج 1 ص390.
[74]- نفسه، ج 2 ص 250.

الرشيد والفهم العميق، بعيدا عن كل تعصب مذهبي أو نزعة عقدية أو نعرة طائفية؛ مما هيأ للقرطبي مساحة واسعة لجمع الأقوال المتقاربة ودراستها ونسبتها إلى قائليها، وتحرير الأحكام فيها ونقدها ثم قبولها أو ردها، نظرا لموسوعيته ولما يتميز به من تفوق علمي وقدرات فكرية هائلة.

لائحة المصادر والمراجع:

أساس البلاغة ، الزمخشري،ط:1، سنة:2009، دار صادر، بيروت. لبنان.

الاستدلال عند الأصوليين،الكفراوي، ط:1،سنة:2009،دار السلام ، القاهرة، مصر.

الاعتصام،الشاطبي، ط:2006،دار البيان العربي، القاهرة، مصر.

إعلام الموقعين عن رب العالمين،ابن القيم،ط:1،سنة:2011،دار القلم، دمشق، سوريا.

البرهان في علوم القرآن، الزركشي،ط:2006، دار الحديث، القاهرة، مصر.

البلغة في أصول اللغة، القنوجي، ط:1،سنة:1988، دار البشائر، بيروت، لبنان.

تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، مطبعة الكويت1969.

تأويل اللفظ والحمل على المعنى، وئام الحيزم، ط:1، سنة:2009،أريس للطباعة، تونس.

تأويل مشكل القرآن،ابن قتيبة، ط:1،سنة:2006، دار التراث، القاهرة، مصر.

التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، طبعة دار سحنون، تونس.

التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة،القرطبي، ط:1، سنة:2001،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر.

تفسير البغوي (معالم التنزيل) ط:4، سنة:1417هـ، الرياض، السعودية.

تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، ط:1،سنة:1411هـ، مكتبةالهلال، بيروت، لبنان.

جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري، ط:1، سنة:1992، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان.

الجامع لأحكام القرآن،القرطبي، ط :د،ت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

الخصائص ، ابن جني،ط :4.سنة:2013.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

دلائل الإعجاز في علم المعاني،الجرجاني،ط:2015، المطبعة العصرية، بيروت، لبنان.

الرسالة، الشافعي،ط:2،سنة:2009، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

روافد المبنى وأثرها في المعنى،طالب إسماعيل،ط:2009،دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.

القاموس المحيط، الفيروزابادي، ط:2، 2010، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر.

القرطبي ومنهجه في التفسير، القصبي محمود، طبعة 1981، دار القلم ، الكويت.

الكشاف ، الزمخشري، ط:1، سنة :2012، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

لسان العرب ، ابن منظور،طبعة:1424هـ، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ابن الأثير، ط:2010، المطبعة العصرية،بيروت، لبنان.

مجموع الفتاوى،ابن تيمية،ط:4،سنة:2011،دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز،ابن عطية،ط:3،سنة:2011،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

معاني القرآن ،النحاس،ط:2،سنة:2013،المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

مفردات ألفاظ القرآن،الراغب الأصفهاني،ط:5،سنة:2011،دار القلم،دمشق، سوريا.

مقاييس اللغة،ابن فارس،ط:1،سنة:2017. دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر.

مقدمة في مناهج البحث في العلوم الإسلامية،مولاي مصطفى الهند،ط:1سنة :2015، الدار العالمية للكتاب، المغرب.

مناهج البحث العلمي، عبد الرحمان بدوي،ط:1977، الكويت.

الموافقات، الشاطبي،ط:8،سنة:2011،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ط:1سنة:1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الوجيز في المناهج وإعداد البحث العلمي، احمد عبد الحميد الخالدي، ط:2009، دار الكتب القانونية، القاهرة، مصر.

فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، الطبعة الأولى: 1414 هـ، دار الكلم الطيب، بيروت لبنان.